جماليات التوظيف الاستعاري في الصحيفة السجادية
«دعاء مكارم الأخلاق أنموذجاً»
دراسة بلاغية تحليلية

م. م. حيدر علي موسى
وزارة التربية/المديرية العامة للاشراف التربوي

المستخلص:
تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن جماليات التوظيف الاستعاري في دعاء مكارم الأخلاق من الصحيفة السجادية، عبر منهج وصفي تحليلي في صورته البلاغية. وقد قسمت الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول، تناول التمهيد التعريف بالصحيفة ودعاء مكارم الأخلاق والاستعارة في البلاغة العربية، وتوزعت الفصول على مناجاة الله وصفاته، ووصف الذات البشرية، ووصف الدنيا والآخرة. وكشفت الدراسة عن تنوع الاستعارات بين التصريحية والمكنية والتمثيلية، وأدائها دوراً محورياً في تجسيد المعاني الغيبية وإثارة وجدان المتلقي.
الكلمات المفتاحية: الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق، الاستعارة، البلاغة العربية، التحليل البلاغي.

Abstract:
This study aims to uncover the aesthetics of metaphorical use in the Supplication of Noble Character from Al-Sahifa al-Sajjadiyya, employing a descriptive-analytical approach in its rhetorical form. The study is divided into an introduction and three chapters. The introduction provides an overview of Al-Sahifa al-Sajjadiyya, the Supplication of Noble Character, and metaphor in Arabic rhetoric. The chapters are divided into sections on supplications to God and His attributes, descriptions of the human self, and descriptions of this world and the hereafter. The study reveals the diversity of metaphors, including explicit, implicit, and representative, and their pivotal role in embodying metaphysical meanings and evoking the reader's emotions.
Keywords: Al-Sahifa al-Sajjadiyya, Supplication of Noble Character, Metaphor, Arabic Rhetoric, Rhetorical Analysis

المقدمة:
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:
فتعد الصحيفة السجادية من أبرز الكتب الإسلامية التي عنيت بالأدعية والمناجاة المأثورة عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام)، حتى لقبت بـ "أخت القرآن" و "إنجيل أهل البيت" (١)، لما تحمله من مضامين عقدية وأخلاقية وروحية عالية، تعكس صفاء النبوة وعمق الإمامة .
وإذا كان النص الديني عموماً يهدف إلى غرس القيم وتربية النفوس، فإن اللغة هي الوسيلة الأسمى لحمل هذه المعاني. ولعل أبرز ما يميز لغة الصحيفة السجادية هو توظيفها للصورة البلاغية، وفي مقدمتها الاستعارة، باعتبارها آلية تعبيرية تنقل المعنى من دائرة التجريد إلى دائرة الحس والمشهد، فتؤثر في النفس وتحرك الوجدان .
من هنا تنبع أهمية هذا البحث الموسوم بـ "جماليات التوظيف الاستعاري في الصحيفة السجادية (دعاء مكارم الأخلاق أنموذجاً): دراسة بلاغية تحليلية"، الذي يسعى إلى الكشف عن أنماط الاستعارة في نصوص الصحيفة، وتحليلها تحليلاً بلاغياً يبرز جمالياتها الفنية ومدى تلاقيها مع المقاصد الدينية والتربوية.
وتكمن مشكلة البحث في التساؤل الرئيس: كيف وظف الإمام السجاد (عليه السلام) الاستعارة في مناجاته؟ وما أنواعها؟ وما الأثر الفني والروحي الذي تتركه في المتلقي؟ إذ لم تحظ هذه الجوانب البلاغية في الصحيفة بدراسة تطبيقية وافية، رغم ما فيها من ثراء فني .
ويهدف البحث إلى:
١. التعريف بالصحيفة السجادية ودعاء مكارم الأخلاق بلاغياً ونصياً .
٢. رصد أبرز الصور الاستعارية في دعاء مكارم الأخلاق .

٣. تحليل هذه الصور وفق المنهج البلاغي المتكامل .
٤. الكشف عن الخصائص الفنية للاستعارة في هذا الدعاء .
ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي في صورته البلاغية، من خلال استقراء النصوص واستخراج الاستعارات وتصنيفها ومن ثم تحليلها .

الدراسات السابقة:

لم تخل الساحة الأكاديمية من دراسات تناولت الصحيفة السجادية بالبحث والتحليل من جوانب متعددة، غير أن الدراسات البلاغية التطبيقية التي تركز على دعاء مكارم الأخلاق على وجه الخصوص لا تزال محدودة. ومن أبرز الدراسات التي وقفنا عليها:

١- دراسة السيد محمد علي الأبطحي في كتابه "الصحيفة السجادية الجامعة" (مؤسسة الإمام المهدي، قم، ١٤١٨هـ)، حيث عني بجمع أسانيد الصحيفة ونسخها، مع تعليقات لغوية موجزة، دون التوقف عند التحليل البلاغي للاستعارة بشكل خاص.

٢- دراسة الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه "في ظلال الصحيفة السجادية" (دار الجواد، بيروت، ١٤٠٢هـ)، وهي دراسة تفسيرية تربوية، اهتمت بشرح المضامين العقدية والأخلاقية للأدعية، متجاوزة الجانب البلاغي الفني.

٣- بحث علي كاظم جواد الموسوم "الاستعارات المفهومية في الصحيفة السجادية" (مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٤٥، ١٤٤٢هـ)، وهو أقرب الدراسات إلى موضوعنا، إذ تناول الاستعارات من منظور معرفي حديث، لكنه لم يقتصر على دعاء مكارم الأخلاق، كما أن منهجه اختلف عن منهجنا القائم على التحليل البلاغي العربي التقليدي.

٤- دراسة محمد باقر الحكيم في كتابه "المنهج التربوي في الصحيفة السجادية" (المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ١٤٢٥هـ)، وهي دراسة تربوية محضة، ركزت على القيم والمضامين التربوية دون التعرض للصياغة البلاغية والاستعارية.

ما يميز البحث الحالي عن الدراسات السابقة:

يتفرد هذا البحث بكونه أول دراسة – على حد علمنا – تخصص بحثها للكشف عن جماليات التوظيف الاستعاري في دعاء مكارم الأخلاق من الصحيفة السجادية، وفق المنهج البلاغي التحليلي، مع تقسيم موضوعي يغطي الاستعارات المتعلقة بالله تعالى، والذات البشرية، والدنيا والآخرة، مما يمنح البحث رؤية متكاملة لم تتعرض لها الدراسات السابقة بهذا النسق والعمق.

ومن هنا يمكن القول ان هذا البحث يتميز عن الدراسات السابقة التي تناولت الصحيفة السجادية من جوانب متعددة: عقدية، تربوية، تاريخية، ونصية. ومن أبرزها: (كتاب "المنهج التربوي في الصحيفة السجادية" لمحمد باقر الحكيم(٢)، ودراسة "الصحيفة السجادية الجامعة" للسيد محمد علي الأبطحي(٣)، وبحث "الاستعارات المفهومية في الصحيفة السجادية" لعلي كاظم جواد(٤). بتركيزه على التحليل البلاغي التطبيقي لأنماط الاستعارة في دعاء مكارم الأخلاق خصوصاً، متجاوزاً الجانب التنظيري أو التربوي العام.

التمهيد:

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالصحيفة السجادية

أولاً: نسبتها ومؤلفها:

تُنسب الصحيفة إلى الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، المعروف بـ "زين العابدين" (٣٨-٩٥هـ)، وهو الإمام الرابع عند الإمامية، اشتهر بالعبادة والزهد حتى لقب بـ "سيد الساجدين" (٥). وقد جمع هذه الأدعية تلاميذه وأصحابه، وفي مقدمتهم زيد بن علي وأبو حمزة الثمالي (٦).

ثانياً: مكانتها الدينية والعلمية:

حظيت الصحيفة السجادية باهتمام بالغ من العلماء والمحدثين، حتى قيل إنها "زبور آل محمد" (٧). وقد شُرحت شروحاً كثيرة، أبرزها: "رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين" للسيد علي خان المدني (ت ١١٢٠هـ) (٨)، و "في ظلال الصحيفة السجادية" للشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ) (٩) .

ثالثاً: أسانيدها:

تواترت رواية الصحيفة عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) عبر طرق متعددة، أشهرها رواية الشيخ المنتجب الدين بن بابويه عن أبيه عن أسلافه(١٠) .

المبحث الثاني: التعريف بدعاء مكارم الأخلاق

دعاء مكارم الأخلاق هو الدعاء العشرون في ترتيب الصحيفة السجادية(١١)، ويعد من أشهر أدعيتها وأكثرها تداولاً. يتميز هذا الدعاء بتركيزه على الجانب الأخلاقي والسلوكي، حيث يطلب الداعي من الله أن يتحلى بمكارم الأخلاق وأن يتجنب مساوئها .

وقد وصفه العلماء بأنه "دستور أخلاقي متكامل" (١٢)، لأنه يشمل جوانب متعددة من العلاقة مع الله، ومع النفس، ومع الناس. ويمتاز بلغته الشاعرية وصوره الاستعارية البديعة، مما يجعله مادة خصبة للدراسة البلاغية .

المبحث الثالث: الاستعارة في البلاغة العربية

أولاً: تعريف الاستعارة لغة واصطلاحاً .

الاستعارة في اللغة مأخوذة من عار واستعار بمعنى طلب العارية أو نقل الشيء من موضع إلى موضع(١٣). وأما في الاصطلاح البلاغي، فهي "نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي" (١٤) .

ثانياً: أركان الاستعارة .

تتكون الاستعارة من ثلاثة أركان:

١- المستعار منه (المشبه به) .

٢- المستعار له (المشبه) .

٣- المستعار (اللفظ المنقول) (١٥) .

ثالثاً: أنواع الاستعارة:

التصريحية: ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به (مثل: "أنت نور النور") (١٦) .

المكنية: ما حُذف فيها المشبه به ورُمز له بشيء من لوازمه (مثل: "الذنوب تميت القلوب") (١٧) .

التمثيلية: ما كانت بتركيب كامل يحكي صورة مركبة (مثل وصف حال الدنيا كدار غرور) (١٨) .

الفصل الأول: الاستعارة في مناجاة الله تعالى وصفاته (في دعاء مكارم الأخلاق)

تمهيد الفصل:

يمثل دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين (عليه السلام) لوحة بلاغية فريدة، تتدفق فيها المعاني الإيمانية في قوالب لغوية بديعة. وقد جاء هذا الفصل ليكشف عن جانب من هذه الجماليات، من خلال رصد الاستعارات التي وردت في المقاطع المتعلقة بمناجاة الله تعالى ووصفه، إذ لا يكاد مقطع يخلو من صورة استعارية تنقل القارئ من دائرة الخبر إلى دائرة المشهد الحي.

المبحث الأول: استعارات الجلال والكمال

أولاً: «اللهم صل على محمد وآل محمد» (١٩) .

الاستعارة: في الفعل "صل» .

التحليل البلاغي: "الصلاة" في أصل معناها اللغوي هي الدعاء والتبريك، لكنها حين تسند إلى الله تعالى تكتسب معنى مجازياً استعارياً، إذ استعيرت صيغة الدعاء (التي هي من فعل المخلوق) للدلالة على الرحمة والكرامة الإلهية. فهي استعارة تصريحية أصلية، حيث شبهت رحمة الله بالصلاة التي يطلبها العبد، ثم استعير اللفظ للدلالة على المعنى

الجديد مع قرينة السياق الإلهي(٢٠) .
الأثر الفني: توحي بالتلاحم بين العبد وربه، وكأن العبد يدعو لربه أن يرحم نبيه، في صورة تحمل من الأدب الجم ما يجعل الدعاء يفيض خشوعاً .
ثانياً: "وأتمم إحسانك» (٢١)
الاستعارة: في لفظ "أتمم» .
التحليل البلاغي: استعير لفظ "الإتمام" الذي يُستخدم عادة للأعمال والمشاريع المادية، للدلالة على استمرار الفضل الإلهي وبلوغه غايته. فهي استعارة مكنية، حيث شبه الإحسان بشيء مادي يُبنى فيُحتاج إلى إكماله، وحذف المشبه به (البناء أو المشروع) وأبقى على شيء من لوازمه وهو "الإتمام» (٢٢) .
الأثر الفني: يجعل القارئ يتصور الإحسان الإلهي كصرح شامخ، يطلب العبد من الله أن يكمله له، فتتعمق صورة العطاء في النفس .
ثالثاً: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» (٢٣) .
الاستعارة: في الفعل "تكلني" (تتركني/تفوضني) .
التحليل البلاغي :"الإيكال" استعارة تصريحية، إذ شبهت حال العبد مع نفسه بحال الضعيف مع من يوكله أمره. والعبد هنا يستعير صورة التفويض ليعبر عن شدة حاجته إلى الله، وكأنه يقول: لا تجعلني وكيلاً على نفسي، فأنا لست أهلاً لذلك(٢٤) .
الأثر الفني: تبرز عجز الإنسان وضعفه، وتجعل المتلقي يعيش حالة الاتكال الحقيقي على الله .
المبحث الثاني: استعارات الرحمة والفضل
أولاً: «وهب لي من لدنك رحمة» (٢٥) .
الاستعارة: في الفعل "هب» .
التحليل البلاغي: "الهبة" استعارة تصريحية، حيث استعير لفظ العطاء الدنيوي (الهبة) للدلالة على العطاء الإلهي المجرد وهذا ينقل الرحمة من معناها المعنوي إلى صورة محسوسة (كالهدية أو العطاء المادي) (٢٦).
الأثر الفني: يجعل الرحمة شيئاً ملموساً يمكن تلقيه باليد، مما يعمق الشعور بقرب الله وعطائه .
ثانياً: "وأسبغ علي نعمك» (٢٧) .
الاستعارة: في الفعل "أسبغ» .
التحليل البلاغي: "الإسباغ" في الأصل إطالة الثوب حتى يغطي البدن كله. استعير هنا للدلالة على شمول النعم وكثرتها. وهي استعارة تصريحية، شبهت فيها النعم بالثوب السابغ الذي يغطي البدن (٢٨).
الأثر الفني: يرسم لوحة للنعم كغطاء شامل يقي العبد من الفقر والعوز، مما يثير في النفس الشعور بالغنى الإلهي .
المبحث الثالث: استعارات الهداية والعصمة
أولاً: «واعصمني من أن أظن بك ظن السوء» (٢٩) .
الاستعارة: في "الظن" و "العصمة» .
التحليل البلاغي: "الظن" استعارة تصريحية، شبه فيها الاعتقاد السيئ بشيء مادي يمكن الدخول فيه أو الخروج منه. "العصمة" استعارة تصريحية، شبه فيها الحفظ الإلهي بحبل يمسك العبد من السقوط في هاوية الظن السيئ (٣٠).
الأثر الفني: يرسم صورة ذهنية مركبة العبد واقف على حفرة من الظلم، والله يمد له حبلاً يمنعه من السقوط .
ثانياً: "وأعني على صالح العمل» (٣١) .
الاستعارة: في "الإعانة» .
التحليل البلاغي: الإعانة استعارة تصريحية، شبه فيها التوفيق الإلهي بمساعدة إنسان لإنسان آخر في حمل ثقيل. وهي تحول العمل الصالح إلى حمل يُحتاج إلى من يعين على رفعه (٣٢).
الأثر الفني: تجعل العمل الصالح عبئاً محبوباً، والإعانة الإلهية هي اليد التي تمسك بالعبد ليرفع هذا الحمل .

خلاصة الفصل الأول:

كشف الفصل الأول عن تنوع الاستعارات في المقاطع المتعلقة بمناجاة الله، حيث تراوحت بين:

التصريحية: (هب، أسبغ، أعن) .

المكنية: (أتمم إحسانك) .

الأصلية والتبعية حسب السياق .

وقد أدت هذه الاستعارات دوراً محورياً في:

١– تجسيد المعاني الغيبية وجعلها قريبة من الحس .

٢– تعميق العلاقة بين العبد وربه من خلال صور العطاء والهبة والعصمة .

٣– إثارة وجدان المتلقي وحمله على التأمل والتدبر.

الفصل الثاني: الاستعارة في وصف الذات البشرية وأحوالها (في دعاء مكارم الأخلاق)

تمهيد الفصل:

بعد أن كان الحديث في الفصل الأول عن مناجاة الله وصفاته الجلالية والجمالية، ينتقل بنا هذا الفصل إلى الحديث عن الإنسان بضعفه وحاجته وتقلبات أحواله. ودعاء مكارم الأخلاق يزخر بمقاطع تصور هذه الحالات الإنسانية تصويراً استعارياً بديعاً، يكشف عن عمق الرؤية النفسية عند الإمام زين العابدين (عليه السلام)، وعن قدرته على تحويل المشاعر المجردة إلى لوحات نابضة بالحياة.

المبحث الأول: استعارات الضعف والحاجة

أولاً: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» (٣٣) .

سبق تحليل هذه الاستعارة في الفصل الأول من زاوية متعلقة بالله، لكننا هنا نعيد قراءتها من زاوية وصف الذات البشرية:

الاستعارة: في "نفسي" الموكولة إلى صاحبها .

التحليل البلاغي (من منظور إنساني): تصور هذه الاستعارة "النفس" وكأنها كيان ضعيف عاجز، لا يصلح لأن يكون وكيلاً أو مسئولاً عن شؤون صاحبه. هناك استعارة مكنية، حيث شبهت النفس بمخلوق ضعيف لا يُؤتمن على شيء، وحذف المشبه به (الضعيف العاجز) وأبقى على لازمه وهو عدم الصلاحية للوكالة (٣٤).

الأثر الفني: تشعر القارئ بأنه لو تُرك لنفسه لضاع، فلا نجاة له إلا بالارتباط بالله. إنها صورة تهدم كل غرور إنساني

ثانياً: "ولا تفضحني بخفية ما اطَّلعت عليه من سري» (٣٥) .

الاستعارة: في "سري" و "خفية» .

التحليل البلاغي: "سري" استعارة تصريحية، حيث شبهت الأعمال الخفية والنوايا الداخلية بشيء مادي يمكن الاطلاع عليه (كالبيت أو الصندوق المغلق) (٣٦). "خفية" استعارة عن الخطأ المستور، وكأن للخطيئة وجوداً مادياً يمكن إخفاؤه تحت غطاء

الأثر الفني: تجعل القارئ يعيش حالة المراقبة الإلهية، فيشعر وكأن أسراره مكشوفة أمام الله، وأن ستر الله عليها هو عين الرحمة .

ثالثاً: "واجبرني» (٣٧) .

الاستعارة: في الفعل "اجبرني» .

التحليل البلاغي:

«الجبر" في الأصل هو إصلاح العظم المكسور. استعير هنا للدلالة على إصلاح حال العبد بعد كسره بالذنب أو الفقر أو الضعف. وهي استعارة تصريحية، شبهت فيها حال العبد المعنوي بحال العظم المكسور، والله هو المجبِّر الذي يعيد إليه قوته واستقامته(٣٨) .

الأثر الفني: توحي بأن الإنسان معرض للكسر في أي لحظة، وأن الطبيب الحقيقي هو الله وحده. تثير في النفس

شعوراً بالهشاشة وفي الوقت نفسه تطمئنها بوجود المعالج

المبحث الثاني: استعارات الذنب والتقصير

أولاً: «واعصمني من أن أظن بك ظن السوء» (٣٩) .

الاستعارة: في "الظن" و "العصمة» .

التحليل البلاغي: "الظن" استعارة تصريحية، شبه فيها الاعتقاد السيئ بشيء مادي يمكن الدخول فيه أو الخروج منه. "العصمة" استعارة تصريحية، شبه فيها الحفظ الإلهي بحبل يمسك العبد من السقوط في هاوية الظن السيئ (٤٠) .

الأثر الفني: يرسم صورة ذهنية مركبة العبد واقف على حفرة من الظلم، والله يمد له حبلاً يمنعه من السقوط. الصورة كلها تحذير وتنبيه إلى خطورة الظن بالله .

خامساً: "وأقلني عثرتي» (٤١) .

الاستعارة: في "العثرة» .

التحليل البلاغي: "العثرة" في الأصل هي الزلة في المشي (أن تتعثر القدم بحجر فتكاد تسقط). استعيرت هنا للدلالة على الذنب والخطيئة. وهي استعارة تصريحية، شبه فيها الذنب بحجر يعترض طريق العبد فيتعثر به. (٤٢) والإقالة في الأصل هي إلغاء الصفقة أو إعادة البيع، فاستعيرت للدلالة على العفو والتجاوز عن الذنب .

الأثر الفني: تجعل مسيرة الإنسان إلى الله كالسير في طريق وعر، مليء بالمطبات (العثرات)، والله هو الذي يمد يده ليقيل العبد ويعيده إلى الطريق المستقيم .

سادساً: "ولا تفضحني بخفية ما اطَّلعت عليه من سري» (٤٣) .

سبق تحليله، لكن نضيف هنا: الصورة الأبرز هنا هي أن للذنوب "وجهاً" يمكن أن يُكشف، و"ستاراً" يمكن أن يُرفع. الذنب ليس مجرد فعل، بل هو كيان له وجود مرئي .

الأثر الفني: يخلق حالة من الحياء والخجل، لأن العبد يدرك أن ذنوبه ليست خفية على الله، وأنه لو شاء لفضحه .

المبحث الثالث: استعارات التوبة والإنابة

أولاً: «وأمِتْني على مِلَّةِ رسولك» (٤٤) .

الاستعارة: في "الموت على الملة» .

التحليل البلاغي: "الملة" هنا شبهت بثوب أو غطاء يموت الإنسان وهو لابسه. أو شبهت بطريق يسير عليه الإنسان حتى آخر لحظة. الاستعارة مكنية، حيث حذف المشبه به (الطريق أو الثوب) وأبقى على لازمه وهو "الموت عليه» (٤٥) .

الأثر الفني: توحي بأن الدين ليس مجرد معتقد، بل هو هوية تلازم الإنسان حتى الرمق الأخير. الموت ليس نهاية الطريق، بل هو لحظة تحقيق الانتماء الحقيقي .

ثانياً: "وأعني على صالح العمل» (٤٦) .

سبق تحليله، لكن نضيف: بعد التحليل: العمل الصالح هنا شبه بحمل ثقيل يحتاج إلى من يعين على حمله. الاستعارة تحول العمل من مجرد طاعة إلى مهمة عظيمة لا يقوم بها الإنسان وحده .

الأثر الفني: تدفع الإنسان إلى طلب العون الدائم من الله، وتجعله متواضعاً لا يغتر بعمله .

ثالثاً: "وأحيِني حياة طيبة» (٤٧) .

الاستعارة: في "الحياة الطيبة» .

التحليل البلاغي: "الحياة الطيبة" استعارة تصريحية، شبهت فيها الحياة التي ترضي الله بشيء طيب المذاق (كالطعام أو الشراب) أو طيب الرائحة. إنها حياة تُذاق وتُشم وتُتذوق، وليست مجرد أيام تمر (٤٨).

الأثر الفني: تجعل القارئ يتوق إلى حياة فيها طعم ولذة حقيقية، وهي الحياة مع الله وبالله .

رابعاً:«وتوفني على سُنَّتِك» (٤٩).

الاستعارة: في "السنة" و "التوفي عليها» .

التحليل البلاغي: "السنة" هنا هي الطريق الواضح. وقد شبهت بطريق يسير عليه المؤمن حتى يصل إلى نهاية المطاف.

"التوفي عليها" استعارة عن الموت وهو سائر في هذا الطريق (٥٠).

الأثر الفني: ترسم صورة للإنسان المسافر في طريق الله، حتى إذا جاءه الموت، لقيه وهو لا يزال على الطريق مستقيم.

خلاصة الفصل الثاني

كشف الفصل الثاني عن الصورة الاستعارية للإنسان في دعاء مكارم الأخلاق، فكان:

١– إنساناً ضعيفاً: لا يُترك لنفسه طرفة عين، محتاجاً إلى من يجبره ويقيل عثرته .

٢– إنساناً مذنباً: له أسرار خفية، ومعرض للعثرة والزلة، لكنه يعيش في دائرة الستر الإلهي.

٣– إنساناً تائباً: يطلب الموت على الملة والحياة الطيبة، عالماً أن عمله يحتاج إلى عون .

وقد تنوعت الاستعارات بين:

التصريحية: (اجبرني، أقلني عثرتي، حياة طيبة) .

المكنية: (الموت على الملة، السري المكشوف) .

التمثيلية: في المقاطع المركبة كصورة الوقوع في الظن السيئ .

الفصل الثالث: الاستعارة في وصف الدنيا والآخرة (في دعاء مكارم الأخلاق)

تمهيد الفصل:

بعد أن كان الحديث في الفصلين السابقين عن الله وعن الإنسان، يختتم هذا الفصل الرحلة الاستعارية في دعاء مكارم الأخلاق بالحديث عن الدارين: الدنيا والآخرة. ورغم أن الدعاء يركز بشكل أساسي على الأخلاق والسلوك، إلا أنه يحمل إشارات عميقة إلى الموت والعمل الصالح والجزاء، صيغت في قوالب استعارية بديعة، تجعل من الغيبيات حقائق ملموسة، ومن الآخرة مشهداً يعيشه الداعي في لحظة مناجاته.

المبحث الأول: استعارات العمل الصالح والجزاء

أولاً: «وأعني على صالح العمل» (٥١) .

سبق تحليل هذه الاستعارة في الفصلين السابقين، لكننا هنا نقرؤها من زاوية الآخرة والجزاء:

الاستعارة: في "صالح العمل" بوصفه حملاً ثقيلاً .

التحليل البلاغي (من منظور أخروي): العمل الصالح هنا ليس مجرد طاعة عابرة، بل هو زاد للمسافر إلى الآخرة.

الاستعارة توحي بأن هذا العمل سيُحمل مع الإنسان إلى حيث يذهب، فهو كالمتاع الذي يعينه في رحلته الطويلة.

وقد شبه العمل الصالح بالحمل الثقيل الذي يحتاج إلى عون، وحذف المشبه به (الزاد أو المتاع) وأبقى على لازمه وهو الاستعانة على حمله (٥٢).

الأثر الفني: يربط العمل الصالح بالآخرة ربطاً عضوياً، فالعمل ليس غاية في نفسه، بل هو وسيلة لبناء مستقبل الإنسان في دار البقاء .

ثانياً: "وهب لي معالي الأخلاق» (٥٣) .

الاستعارة: في "معالي» .

التحليل البلاغي: "المعالي" جمع معلاة، وهي الأماكن المرتفعة. استعيرت هنا للدلالة على الأخلاق الرفيعة الكريمة.

وهي استعارة تصريحية، شبهت فيها الأخلاق الفاضلة بقمم الجبال أو الأماكن العالية، ثم استعير اللفظ للدلالة على المعنى المعنوي (٥٤) .

الأثر الفني: توحي بأن الأخلاق ليست متساوية، بل هي درجات ومراتب، بعضها أعلى من بعض. وتجعل الساعي

إلى الأخلاق وكأنه متسلق جبال، يبذل جهداً ليصل إلى القمة. كما توحي بأن هذه الأخلاق هي رفعة حقيقية للإنسان في الدنيا والآخرة .

ثالثاً: "وأحيِني حياة طيبة» (٥٥) .

سبق تحليلها، لكن نضيف هنا: "الحياة الطيبة" قد تشير إلى الحياة الدنيا المرضية، وقد تشير إلى الحياة الآخروية. الاستعارة تترك الباب مفتوحاً على كلا المعنيين، وكأن الداعي يطلب حياة طيبة في الدارين معا(٥٦) .

الأثر الفني: تجعل القارئ يتصور الحياة الطيبة كمذاق حلو أو رائحة زكية تدوم، لا في الدنيا فقط بل تمتد إلى الآخرة

المبحث الثاني: استعارات الموت والانتقال

أولاً: «وأمِتْني على مِلَّةِ رسولِك» (٥٧) .

سبق تحليلها، لكن من زاوية الموت: "الموت على الملة" صورة استعارية مركبة، تتصور الموت كمحطة وصول، والملة كالطريق الذي يوصل إليها. الموت هنا ليس فناءً، بل هو انتقال من حال إلى حال، والداعي يريد أن يكون انتقاله وهو على الطريق الصحيح (٥٨).

الأثر الفني: يزيل عن الموت روعته، ويجعله لحظة تحقيق للانتماء، لا لحظة فقدان وانتهاء .

ثانياً: "وتوفني على سُنَّتِك» (٥٩) .

سبق تحليلها، لكن نضيف: "التوفي" في الأصل هو أخذ الشيء تاماً كاملاً. استعير للموت لأنه قبض الروح كاملة. و"السنة" هي الطريق الواضح. الاستعارة هنا ترسم صورة الموت كاستدعاء لطيف، وكأن الله يدعو عباده إليه واحداً واحداً، في الوقت الذي يختاره (٦٠).

الأثر الفني: يخفف وطأة الموت، ويجعله أقرب إلى "الاستدعاء الكريم" منه إلى "النهاية المفاجئة" .

المبحث الثالث: استعارات الدنيا والآخرة

أولاً: «ولا تفضحني بخفية ما اطَّلعت عليه من سري» (٦١) .

بعد تحليل أخروي: "الفضح" هنا له بعد أخروي واضح، فهو ليس مجرد فضيحة دنيوية، بل هو فضيحة يوم القيامة "يوم تُبلى السرائر". الاستعارة في "الخفية" و "السري" تجعل الإنسان يعيش وكأنه في محكمة إلهية، وأسراره مكشوفة، والله هو وحده القادر على الستر (٦٢).

الأثر الفني: يخلق حالة من المراقبة الدائمة، ويدفع الإنسان إلى العمل للآخرة وكأنه يراها .

ثانياً: "واعصمني من أن أظن بك ظن السوء» (٦٣) .

بعد تحليل أخروي: "الظن بالله" له علاقة وثيقة بالآخرة، فكيف يظن العبد بربه وهو الذي وعده بالجنة إن أطاعه؟ الاستعارة هنا تحذر من ظن السوء الذي قد يحرم الإنسان من رحمة الله في الآخرة (٦٤).

الأثر الفني: يربط بين الأخلاق القلبية (الظن) والمصير الأخروي، فحسن الظن بالله منجاة، وسوء الظن به هلاك .

ثالثاً: "واجبرني» (٦٥) .

بعد تحليل أخروي: الجبر الإلهي لا يقتصر على الدنيا، بل يمتد إلى الآخرة. فالله يجبر كسر عباده المؤمنين يوم القيامة، فيدخلهم الجنة برحمته. الاستعارة توحي بأن كسر الإنسان قد يكون طريقاً إلى جبر الله الأبدي (٦٦) .

الأثر الفني: يحول المصائب الدنيوية إلى فرص للرحمة الأخروية .

خلاصة الفصل الثالث:

كشف الفصل الثالث عن رؤية دعاء مكارم الأخلاق للدنيا والآخرة من خلال الاستعارة، فكان:

١- الدنيا: دار عمل، فيها "معالي الأخلاق" التي يُتسلق إليها، وفيها "الحياة الطيبة" التي تُذاق .

٢- الموت: ليس نهاية، بل "توفٍ" و "استدعاء" على "سنة" و "ملة" .

٣- الآخرة: هي المقصد، ولذلك كل عمل في الدنيا يُرى من خلال عدسة الجزاء والثواب .

وقد تنوعت الاستعارات بين:

التصريحية: (معالي الأخلاق، حياة طيبة) .

المكنية: (الموت على الملة، السري المكشوف) .

التمثيلية: في ربط العمل الصالح بالجزاء الأخروي .

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

بعد هذه الرحلة التحليلية في دعاء مكارم الأخلاق من الصحيفة السجادية، يمكن تسجيل النتائج التالية:

أولاً: على مستوى أنواع الاستعارات :

– تنوعت الاستعارات في الدعاء بين التصريحية (كـ "هب لي"، "أسبغ علي"، "معالي الأخلاق") و المكنية (كـ "الموت على الملة"، "أتمم إحسانك") و التمثيلية (في الصور المركبة كالوقوع في الظن السيئ).

– غلبت الاستعارة التصريحية في المقاطع المتعلقة بطلب العطاء الإلهي، بينما غلبت الاستعارة المكنية في المقاطع المتعلقة بوصف الحالات النفسية.

ثانياً: على مستوى الوظائف الفنية :

– أدت الاستعارة دوراً محورياً في تجسيد المعاني الغيبية، فنقلت القارئ من عالم التجريد إلى عالم الحس والمشهد .

– ساهمت في إثارة الوجدان، وجعلت الدعاء ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية .

– حققت الانسجام بين الشكل والمضمون، فجاءت الألفاظ معبرة عن المعاني بأرقى صورة .

ثالثاً: على مستوى المحاور الثلاثة :

– في مناجاة الله: صورت الاستعارات الله تعالى بصفات الجلال والجمال، وكأنه الملك المعطي، والرحيم الهادي.

– في وصف الذات البشرية: صورت الاستعارات الإنسان بضعفه وحاجته، وكأنه المكسور المحتاج إلى جبر، والعاثر المحتاج إلى إقالة .

– في وصف الدنيا والآخرة: صورت الاستعارات الدنيا كدار عمل، والآخرة كمقصد، والموت كمحطة انتقال.

رابعاً: التوصيات

– يوصي البحث بدراسة التشبيه والكناية في دعاء مكارم الأخلاق بنفس المنهج التحليلي .

–كما يوصي بدراسة استعارات أدعية أخرى من الصحيفة السجادية، مثل دعاء أبي حمزة الثمالي، أو دعاء التضرع .–. ويقترح إجراء دراسة موازنة بين الاستعارة في الصحيفة السجادية والاستعارة في نهج البلاغة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين...

الهوامش:

(١) السيد علي خان المدني، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، تحقيق: محسن الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٩هـ، ج١، ص٤٥.

(٢) محمد باقر الحكيم، المنهج التربوي في الصحيفة السجادية، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ١٤٢٥هـ، ص ٢٣ .

(٣) السيد محمد علي الأبطحي، الصحيفة السجادية الجامعة، مؤسسة الإمام المهدي، قم، ١٤١٨هـ، ص ١٢ .

(٤) علي كاظم جواد، الاستعارات المفهومية في الصحيفة السجادية، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٤٥، ١٤٤٢هـ، ص١١٠ .

(٥) الشيخ عباس القمي، الكنى والألقاب، مكتبة الصدر، طهران، ١٣٩٧هـ، ج٢، ص٣٤٥ .

(٦) السيد محمد علي الأبطحي، الصحيفة السجادية الجامعة، ص٥٦ .

(٧) السيد علي خان المدني، رياض السالكين، ج١، ص٥٠ .

(٨) م.ن، ج١، ص٥ (مقدمة المحقق) .

(٩) الشيخ محمد جواد مغنية، في ظلال الصحيفة السجادية، دار الجواد، بيروت، ١٤٠٢هـ، ص٧ .
(١٠) السيد محمد علي الأبطحي، الصحيفة السجادية الجامعة، ص٦٠ .
(١١) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٢٢هـ، ص٩٨ .
(١٢) الشيخ محمد جواد مغنية، في ظلال الصحيفة السجادية، ص٢٤٥ .
(١٣) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، مادة "عور" .
(١٤) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت، ص٣٥ .
(١٥) المصدر نفسه ، ص٤٠ .
(١٦) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ص٢١٥ .
(١٧) المصدر نفسه ، ص٢٢٠ .
(١٨) السيد أحمد الهاشمي، م.ن، ص٢٢٥ .
(١٩) الإمام زين العابدين (ع)، الصحيفة السجادية، ص٩٨ .
(٢٠) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٤٥ .
(٢١) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص٩٩ .
(٢٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت، ص١٢٠ .
(٢٣) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٠ .
(٢٤) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢١٧ .
(٢٥) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص٩٨ .
(٢٦) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٤٨ .
(٢٧) الإمام زين العابدين (ععليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠١ .
(٢٨) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢١٨ .
(٢٩) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٢ .
(٣٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٢٥ .
(٣١) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٣ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ص١٢٦ .
(٣٣) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٠ .
(٣٤) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٣٠ .
(٣٥) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٢ .
(٣٦) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢٢٠ .
(٣٧) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٤ .
(٣٨) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٥٥ .
(٣٩) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٢ .
(٤٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٢٥ .
(٤١) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٥ .
(٤٢) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢٢٢ .
(٤٣) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٢ .
(٤٤) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٦ .
(٤٥) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٦٠ .
(٤٦) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٣ .

(٤٧) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٧ .
(٤٨) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢٢٥ .
(٤٩) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٨ .
(٥٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٣٥ .
(٥١) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٣.
(٥٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٠.
(٥٣) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٩ .
(٥٤) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢٣٠ .
(٥٥) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٧ .
(٥٦) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٧٠ .
(٥٧) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٦ .
(٥٨) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٥ .
(٥٩) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٨ .
(٦٠) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢٣٥ .
(٦١) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٢ .
(٦٢) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٧٥ .
(٦٣) الإمام زين العابدين (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٢ .
(٦٤) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٢٥ .
(٦٥) الإمام زين العابدين (ععليه السلام)، الصحيفة السجادية، ص١٠٤ .
(٦٦) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص٢٣٨ .

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر الأساسية
١- الإمام زين العابدين (عليه السلام): الصحيفة السجادية، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٢٢هـ.
ثانياً: شروح الصحيفة
١- السيد علي خان المدني: رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، تحقيق: محسن الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٩هـ .
٢- الشيخ محمد جواد مغنية: في ظلال الصحيفة السجادية، دار الجواد، بيروت، ١٤٠٢هـ .
ثالثاً: كتب البلاغة
١- الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت .
٢- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت .
٣- الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ .
٤- العسكري، أبو هلال: الصناعتين، تحقيق: محمد المفدي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ .
رابعاً: الدراسات والبحوث
١- الأبطحي، السيد محمد علي: الصحيفة السجادية الجامعة، مؤسسة الإمام المهدي، قم، ١٤١٨هـ.
٢- حكيم، محمد باقر: المنهج التربوي في الصحيفة السجادية، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ١٤٢٥هـ .
٣- جواد، علي كاظم: الاستعارات المفهومية في الصحيفة السجادية، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٤٥، ١٤٤٢هـ.
خامساً: كتب اللغة والمعاجم
١- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ .
٢- القمي، الشيخ عباس: الكنى والألقاب، مكتبة الصدر، طهران، ١٣٩٧هـ .